وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس : أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخاري وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف .

ثم بعد ذلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام .

وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قولهم تعالى : { وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا } قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد ابن إسحاق .

قال ابن جرير في تفسيره : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إلى ذكرناهم فصورهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

وروى ابن أبي حاتم عن عروة ابن الزبير أنه قال : ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان " ود " أكبرهم وأبرهم به .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور حدثنا الحسن بن موسى حدثنا يعقوب عن أبي المطهر قال ذكروا عند أبي جعفر - هو الباقر - وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب قال فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب أما أنه قتل في أول أرض عبد فيها غير ا تقعالى قال ذكر ودا قال : كان رجلا صالحا وكان محببا في قومه فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم عليهم تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا : نعم فصور لهم مثله قال : فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه

؟ قالوا : نعم قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به قال : وأدرك أنباؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون ا أولاد أولادهم فكان أول ما عبد غير ا " ود " الصنع الذي سموه ودا .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لها ثم عبدت بعد ذلك من دون ا D ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير و الحمد والمنة .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول ا A : أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة ويقال لها " مارية " وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال : [أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند ا D] .

* * * .

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث ا عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو إلى عبادة ا وحده لا شريك له وينهي عن عبادة ما سواه .

فكان أول رسول بعثه ا إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة عن النبي A في حديث الشفاعة قال : [فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك ا بيده ونفخ فيك من ورحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن شجرة فعصيت نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك ا عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلا ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك D ؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي] وذكر تمام الحديث كا أورده البخاري في قصة نوح .

فما بعث ا نوحا عليه السلام دعاهم إلى إفراد عبادة ا وحده لا شريك له وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر ا تعالى من بعده من الرسل الذي هم كلهم من ذريته كما قال تعالى : { وجلعنا ذريته هم الباقين } وقال فيه وفي إبراهيم : { وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب } أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم .

قال ا تعالى : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا ا واجتنبوا الطاغوت } وقال تعالى : { واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون } وقال تعالى : { وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون } .

ولهذا قال نوح لقومه : { اعبدوا ا ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } وقال : { أن لا تعبدوا إلا ا إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم } وقال : { يا قوم اعبدوا ا ما لكم من إله غيره أفلا تتقون } وقال : { يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا ا واتقوا وأطيعون } : و { وقد خلقكم أطوارا } الآيات الكريمات .

فذكر أنهم دعاهم إلى ا بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم .

{ قال الملأ من قومه } أي السادة الكبراء منهم : { إنا لنراك في ضلال مبين } .

{ قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين } أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أي الذي يقول للشيء كن فيكون : { أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من ا ما لا تعلمون } وهذا شأن الرسول أن يكون بليغا أي فصيحا ناصحا أعلم الناس با D .

وقالوا له فيما قالوا : { ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين } .

تعجبوا أن يكون بشر رسولا وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم وقد قيل إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل : " وهم أتباع الرسل " وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق .

وقولهم : { بادي الرأي } أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحونه بسببه Bهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والإنقياد له متى ظهر .

ولهذا قال رسول ا A مادحا للصديق : [ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم] ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة Bهم ولهذا قال رسول ا A لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه قال : [يأبى ا والمؤمنون إلا أبا بكر] Bه .

وقوله كفرة قوم نوح له ولمن آمن به : { وما نرى لكم علينا من فضل } أي لم يظهر لكم

أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا { بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون } .

وهذا تلطف في الخطاب معهم : ترفق بهم في الدعوة إلى الحق كما قال تعالى : { فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى } وقال تعالى : { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } وهذا منه .

يقول لهم : { أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وأتاني رحمة من عنده } أي النبوة والرسالة { فعميت عليكم } أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها { أنلزمكموها } أي أنغصبكم بها ونجبركم عليها ؟ { وأنت لها كارهون } أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه { ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على ا } أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم أن أطلب ذلك إلا من ا الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطوني أنتم .

وقوله : { وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون } كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال : { إنهم ملاقوا ربهم } أي فأخاف إن طردتهم أفلا تذكرون .

ولهذا سأل كفار قريش رسول ا A أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه ا عن ذلك كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف .

{ ولا أقول لكم عندي خزائن ا ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك } أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم ا إلا ما أعلمني به ولا أقد إلا على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء ا : { ولا أقول للذين تزدري أعينكم } يعني من أتباعه { لن يؤتيهم ا خيرا ا أعلم بما في أنفسهم إني إذن لمن الظالمين } أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند ا يوم القيامة ا أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيرا فيخر وإن شرا فشر كما قالوا في المواضع الأخر : { أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين } .

* * * .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : { فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون } أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم .

وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكان الوالد إذا بلغ ولد وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائما ما بقي .

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان وإتباع الحق ولهذا قال : { ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا } .
ولهذا : { قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به ا إن شاء وما أنتم بمعجزين } أي إنما يقدر على ذلك ا D فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون .
{ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان ا يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون } أي من يرد ا فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .
* * * .
{ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن } تسلية له عما كان منهم إليه { فلا تبتئس بما كانوا يفعلون } وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أي لا يسوءنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب .
{ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون } .
وذلك أن نوحا عليه السلام يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأي أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب ا عليهم فلبى ا دعوته وأجاب طلبته قال ا تعالى : { ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم } وقال تعالى : { ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم } وقال تعالى : { قال رب إني قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين } وقال تعالى : { فدعا ربه أني مغلوب فانتصر } وقال تعالى : { قال رب انصرني بما كذبون } وقال تعالى : { مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون ا أنصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا } .
فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم .
فعند ذلك أمره ا تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها .
وقدم ا تعالى إليه أن إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد يدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال : { ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون } .
{ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه } أي يستهزئون منه استبعادا لوقوع ما توعدهم به { قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون } أي نحن الذين نسخر منكم

وتتعجب منكم في إستمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم { فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم } .

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول .

كما قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول ا A : [يجيء نوح عليه السلام وأمته فيقول ا D : هل بلغت ؟ فيقول أي رب فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ما جاءنا من نبي فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ ! فيقول : محمد وأمته فنشهد أنه قال بلغ] وهو قوله تعالى : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا } .

والوسط العدل فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق والمصدوق بأن ا قد بعث نوحا بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل حتى إنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم .

كما قال البخاري : حدثنا عبدان حدثنا عبد ا عن يونس عن الزهري قال سالم : قال ابن عمر : قام رسول ا A في الناس فأثنى على ا بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال : [إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور وأنه ا ليس بأعور] .

وهذا الحديث في الصحيحين أيضا من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي A قال : [ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث نبي قومه ؟ إنه أعور وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه] لفظ البخاري .

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب ا له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة وا أعلم .

قال محمد بن إسحاق عن الثوري : وكان من خشب الساج وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة .

قال الثوري : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء .

وقال قتادة : كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعا وهذا الذي في التوراة على ما رأيته وقال الحسن البصري : ستمائة في عرض ثلاثمائة وعن ابن عباس ألف ومائتا ذراع في عرض

ستمائة ذراع وقيل كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع .

قالوا كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بلبها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

قال ا تعالى : { قل رب انصرني بما كذبون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا } أي بأمرنا لك بمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها .

{ فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون } .

فتقدم إليه بأمر العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وإن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أي إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار وعن ابن عباس التنور عين في الهند وعن الشعبي بالكوفة وعن قتادة : بالجزيرة .

وقال علي بن أبي طالب : المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر أي إشراقة وضياؤه أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب .

وقوله تعالى : { حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل } هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

وفي كتاب أهل الكتاب : أنه أمر أن يحمل كل ما يؤكل سبعة أزواج ومالا يؤكل زوجين : ذكر وأنثى .

وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق : { اثنين } إن جعلنا ذلك مفعولا به وأما إن جعلناه توكيدا لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي وا أعلم .

وذكر بعضهم - ويروى عن ابن عباس : أن أول ما دخل من الطيور الدرة وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبدا بن صالح حدثني الليث حدثني هشام ابن سعد

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول ا A قال : [لما حمل نوح السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن ؟ - أي كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد ؟ - فسلط ا عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى ا إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفارة منها] .

هذا مرسل .

وقوله : { وأهلك إلا من سبق عليه القول } أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه " يام " الذي غرق كما سيأتي بيانه .

{ ومن آمن } أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال ا تعالى : { وما آمن معه إلا قليل } هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهارا بضروب المقال وفنون المتطلفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة .

فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا وقيل كانوا عشرة .

وقيل إنما كانوا نوحا وبينه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة " يام " الذي انخزل وانعزل وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل .

وهذا القول فيه مخالف لظاهر الآية بل هي نص في أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال : { ونجني ومن معني من المؤمنين } وقيل كانوا سبعة .

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم : وهم حام وسام ويافث ويام ويسميه أهل الكتاب " كنعان " وهو الذي قد غرق و " عابر " فقد ماتت قبل الطوفان وقيل إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها .

وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله : { لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا } .

قال ا تعالى : { فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد الذي نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين } .

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى : { والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا أستويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون } .

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمر : أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله A حين هاجر : { وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق

واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا } .

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال : { اركبوا فيها بسم ا مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم } أي على أسم ا ابتداء سيرها ونتهاؤه { إن ربي لغفور رحيم } أي وذو عقاب أليم مع كونه غفورا رحيما لا يرد بأسه عن القوم المجرمين كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره .

قال ا تعالى : { وهي تجري بهم في موج كالجبال } وذلك أن ا تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى : { فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر } والدسر المسامير { تجري بأعيننا } أي بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها { جزاء لمن كان كفر } .

وقد ذكر ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط .

وقال تعالى : { إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية } أي السفينة { لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية } .

قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعا وهو الذي عند أهل الكتاب وقيل : ثمانين ذراعا وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير .

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملئوا السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز .

رواهما ابن أبي حاتم .

{ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عام اليوم من أمر ا إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين } .

وهذا الابن هو " يام " أخو سام وحام ويافث وقيل اسمه " كنعان " وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه في دينه فهلك مع من هلك هذا وقد نجال مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب .

{ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين } .

أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق بها أحد ممن عبد غير ا D أمر ا الأرض أن تبتلع ماءها

وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر { وغيض الماء } أي نقص عما كان { وقضي الأمر } أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم .

{ وقيل بعدا للقوم الظالمين } أي نودي عليهم بلسان القدرة : بعدا لهم من الرحمة والمغفرة .

كما قال تعالى : { فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين } .

وقال تعالى : { فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقناهم أجمعين } .

وقال تعالى : { فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم } .

وقال تعالى : { فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناهم آية للعالمين } .

وقال تعالى : { ثم أغرقنا الآخرين } .

وقال : { ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر } .

وقال تعالى : { مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون ا أنصارا * وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا } .

وقد استجاب ا تعالى - وله الحمد والمنة - دعوته فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن قائد مولى عبد ا بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول ا A قال : [فلو رحم ا من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبي] ! .

قال رسول ا A : [مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة - يعني إلا خمسين عاما - وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة في البر كيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون .

فما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء قبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم ا منهم أحدا لرحم أم الصبي] ! .

وهذا حديث غريب وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة وأخرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار وا أعلم .

والمقصود أن ا لم يبق من الكفارين ديارا .

فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق - ويقال ابن عناق - كان موجودا من قبل نوح إلى زمان موسى ويقولون : كان كافرا متمردا جبارا عنيدا ويقولون : كان لغير رشدة بل ولدته أمه بنت آدم من زنى وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة : ما هذه القصة التي لك ؟ ويستهزئ به ويذكرونه أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا إلى غير ذلك من الهذايانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول : فكيف يسوغ فيه أن يهلك ا ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ماذكروا ؟ .

وكيف لا يرحم ا منهم أحدا ولا أم الصبي ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر والشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا ؟ .

وأما المنقول فقد قال ا تعالى : { ثم أغرقنا الآخرين } وقال : { رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا } .

ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي A أنه قال : [إن ا خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن] .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى { إن هو إلا وحي يوحى } إنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة 0 وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه .

فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب ا المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة والكذبة عليهم لعائن ا المتتابعة إلى يوم القيامة وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء وا أعلم